الأداتى

الأداتية منهج للتفكير

كان وليم جيمس أول من نبه على فضل ديوى ومدرسة شيكاغو فى محاضراته التى نشرت فى كتاب « البرجماتزم » ، وقال إن اتجاهها يمثل : « النظرة الأداتية عن الحق تلك النظرة التى تعلم بنجاح فى شيكاغو » . وشرح هذه النظرة بما نقلناه من قبل ، من أن الأفكار تصبح حقًّا بمقدار ما تعيننا على الظفر بعلاقات مرْضية satisfoctory مع أجزاء أخرى من الخبرة . ولكن ديوى كما ذكرنا نقد جيمس فى فهمه هذه النظرية على هذا النحو ، من ربط الحق بالنجاح والإرضاء ، لأن الأداتية التى يقصدها غير ذلك ، فهى أدق وأعمق . ولما كانت مفتاح مذهبه فقد أفدنا لبيانها هذا الفصل .

لقد ثار جدل قديم منذ أرسطو حول المنطق أهو صورة الفكر أم آلة organon للتفكير . ولفظة أورجانون تفيد باليونانية العضو الذى يؤدى وظيفته ، كالعين عضو البصر ، وعندما نقل العرب هذا الاصطلاح فيما يختص بالمنطق قالوا إنه « آلة » ، وقالوا فى تعريفه إنه « آلة قانونية يعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ » . ولكننا آثرنا استعمال لفظة « أداة » حتى لا تلتبس مع الاستعمال الحديث لكلمة « آلة » .

وعندما وضع ديوى منهجه الأداتى instrumental كان فى ذهنه أن يرجع إلى مذهب أرسطو من اتخاذ المنطق أداة للتفكير ، لا كما فعل كانط وأتباعه من جعلهم المنطق صوريًّا ، وأن فى العقل صوراً أولية للتفكير . « فالقول بأن التفكير أداة لبلوغ الحق . وأن هذه الأداة مشكلة" من نفس الموضوع الذى

تطبق عليه ، إنما هو عودة إلى التراث الأرسطاليسى فى المنطق »[١] غير أن استخدام العلوم الحديثة وتقدمها وما صحب ذلك من منهج تجريبى قد استلزم « أورجانون » جديداً ، أى أداة مختلفة عن أورجانون أرسطو . وأكبر الظن أن رد ديوى منهجه إلى أورجانون أرسطو مع تسميته باسم الأداة ، إنما هو إشارة إلى ما فعله بيكون من قبل حين سمى منهجه « الأورجانون الجديد » . ولا غرابة فى ذلك فإعجاب ديوى بفرنسيس بيكون ليس خافياً ؛ وقد صرح به فى كتابه « تجديد فى الفلسفة » . وإذا كان بيكون قد وضع أساس المنهج التجريبى الذى سارت العلوم على هديه فتقدمت هذا التقدم الذى نشهد أثره فى الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة ، فإن ديوى قد وضع أساس المنهج التجريبى الذى ينبغى أن يطبق على العلوم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية .

فالأداتية منهج يلائم التفكير فى القرن العشرين .

ولا بد لفهم الأداتية من فهم طبيعة التفكير .

لقد كان عيب الفلسفات القديمة — فى نظر ديوى — أنها فصلت التفكير عن تيار الخبرة الإنسانية ، ونظرت إليه على أنه عملية ثابتة ، أو « لقطة » فى صورة فوتوغرافية ، فانتزعت التفكير من مجرى الحياة وانتزعت معه صفة جوهرية لكل كائن حى هى أنه يعيش فى زمان . وسميت أوجه التفكير بأسماء كثيرة مثل التصور ، والحكم ، والاستدلال ، والتأمل . ولكن هذه الأوجه إنما تدل على « بحث » inquiry ، أو على نتيجة بحث ، وأنّ البحث يشغل منزلةً متوسطة فى الخبرة .

فالبحث ، والخبرة ، والتفكير ، والزمان ، والاتصال ، والسياق ، مصطلحات تعد مفاتيح لا غنى لمعرفتها إذا شئنا فهم فلسفة ديوى ومنهجه . وهى مصطلحات

---

(١) Essays in Experimental Logic, p. 333.

وانظر الفصل بأكمله الذى نشر فى هذا الكتاب بعنوان "An Added Note as to the Practical" ص ٣٣٠ — ٣٣٤ وهو فصل قصير أضافه إلى نقده لكتاب البرجماتزم لوليم جيمس ، والذى لخصناه من قبل .

تتردد فى معظم كتاباته .

فالإنسان باحث فى كل خطوة من حياته ، « وأبحاثه تتدخل فى كل ميدان من الحياة وفى كل مظهر من مظاهرها . ففى كل يوم يعيشه الناس يفحصون ، ويقلبون الأمور على وجوهها فكرياً ، ويستدلون ويحكمون « بالطبع » كما يبذرون ويحصدون وكما ينتجون ويتبادلون وسائل الراحة فى المعيشة »[١] . لك إذن أن تقول إن الإنسان باحث بالطبع ، وهو دائب عليه ، لا يكاد يبدأ بحث مشكلة وينتهى به إلى نتيجة ، حتى يواجه مشكلة أخرى فى البحث ، وهكذا .

والأداة التى يستعملها الإنسان « بالطبع » naturally فى أثناء هذا البحث هى التفكير ، وهو فى هذا التفكير ينتقل من خبرة إلى أخرى انتقالا متصلا لا انقطاع فيه ، ولا نزاع أن هذا الانتقال يستغرق زماناً ، كما يتشكل التفكير بمقتضى السياق context على مجرى الأحوال .

بعبارة أخرى أن عملية البحث يتدخل فيها التفكير والخبرة والسياق والاتصال . ولذلك يسمى مذهبه بأى اسم من هذه العمليات ، مثل التجريبية نسبةً إلى الخبرة ، والسياقية نسبةً إلى السياق ، ومذهب العمليات العقلية Operationalism نسبةً إلى اتصال عمليات التفكير داخل الخبرة . وهذه كلها أدوات للبحث والسلوك فى الحياة ، ومن ثمّ سمى مذهبه بالأداتية .

ولنطبق هذه المفاتيح على أمثلة محسوسة توضح ما ترمى إليه .

ولنبدأ من البداية فنقول إن كل شىء يدخل فى خبرتنا ليس من نوع واحد بالنسبة إلى ميزان المعرفة . يشعر أحدنا بعطش فيشرب بعض الماء ليطفئ ظمأه ، فإن كان قد تناول الماء اعتياداً كانت الخبرة الناشئة عن هذا الموقف مختلفة عمن يتناول الماء وهو يعرف قيمته وأثره . أو انظر إلى خبرة الشخص العادى عن صورة زيتية ، وخبرة الفنان الذى يفحصها ، وخبرة البائع الذى يقدر قيمتها على أساس ثمنها . فهناك خبرة ليس للتفكير فيها مدخل ، وأخرى ينعطف فيها الشخص على

(١) Logic : The Theory of Inquiry, p. 102.

نفسه ليفكر ويعرف ويحلل . وهذا النوع الثانى هو الذى يهمنا فلسفياً .

فإذا انعطف أحدنا على نفسه ، وأخذ يفكر فيما يفعله ، كانت هذه الأمور « موضوع » التفكير ، حتى ليخيل إليه أنه منعزل عنها مع أنها جزء من نفسه ، وهى عملية واحدة تصدر عنه وتختلط ذاته بموضوعات الفكر . غير أن الفلاسفة لطول تأملهم ، وعزلهم الأمر الذى يفكرون عن مجرى الخبرة والحياة ، خيل إلى بعضهم أن لهذه « الموضوعات » وجوداً مستقلا بذاته ، إما فى الفكر ، وإما خارج الذهن . ولكن النظرية التى يدافع عنها ديوى هى وجوب اعتبار الذات والموضوع متصلين ، وأن الانفصال بين الشخص المفكر وبين موضوعات الفكر انفصالا تاماً هو من نوع الثنائيات التى صنعها الفلاسفة وليس لها وجود فى الواقع .

من الخطأ إذن أن نعزل الأمور خارج الخبرة ، أو نجعلها موضوعات للمعرفة . والطريق الصحيح لمعرفتها هو أن ندرسها فى حالة وجودها داخل الخبرة ، مثل أن يصاب مريض بالزكام فينظر إلى العوامل والصفات المتعددة المختلفة وهى متصلة ، لأنها كذلك فى الواقع ، وأن يدرسها فى « سياقها » وفى أبرز نقطها . وما يبرز فى الشعور ليس فى الواقع إلا جزءا ضئيلا من الخبرة . فأنا أكتب الآن وأفكر فيما أكتب وأشعر به ، ولكن فى الوقت نفسه توجد أشياء كثيرة فى الحجرة التى أكتب فيها كما يوجد أشخاص وأصوات ، وهذه كلها جزء من خبرتى الراهنة ، ولكن التركيز فى الكتابة فقط ، ولذلك يكون واضحاً فى الشعور .

ويظهر التفكير بمعنى الكلمة ، أو ما يسميه ديوى التفكير التأملى reflective thinking حين لا تجرى الأمور حسب المألوف بل حين يقع الإنسان فى ضيق ، وحين يشعر بالحرج ، وحين تبرز أمامه عدة طرق يحتار فى اختيار أى طريق منها يسلكه . فأنت تمشى فى سكة زراعة ممهدة ليس بها منعطفات ، فتمضى فيها قدماً حتى تبلغ مفترق طرق ، أيها تسلك ، فأنت فى شك ، فى حيرة ، ولست على يقين . إذ لعلك تسلك طريقاً لا يؤدى بك إلى الوجهة المقصودة . عندئذ تأخذ فى التفكير لحل هذه المشكلة ، وذلك بتحديد المشكلة وابتداع

الوسائل لمعالجتها . وهذا هو شأن الطبيب حين يعالج مريضاً ، أو الاقتصادى حين يحل أزمة مالية ، أو المزارع الذى يجد ماء يروى به أرضه ، وغير ذلك . فلا بد أن يتعلق التفكير بموقف معين محسوس ، وأن تكون له غاية يريد بلوغها ، ووظيفةٌ يؤديها هى حل المشكلة . نحن إذن نفكر هذا التفكير التأملى ليكون « أداة » للتحكم فى موقف مضطرب معقد . لقد وهبتنا الطبيعة اليد لنتاول بها الأشياء وأداة نستعملها فى القبض عليها ، وكذلك وهبتنا الطبيعة التفكير ليكون أداة نستعملها فى تناول أمور من نوع آخر ، هى هذه الأمور المعقدة التى تحتاج منا إلى حل . وذلك يكون با ستدلال وتحديد المعانى الدالة على الأشياء ، ومعرفة العلاقة بين الأشياء ، وربط الأسباب بالمسببات وغير ذلك .

ولكن الناس لم يسلكوا فى حل مشكلاتهم هذا الطريق التجريبى المعقول الذى يؤدى حقًّا إلى السيطرة على البيئة وحل المواقف المعقدة ، وإنما لجأوا فى بداءتهم إلى استخدام قوى خلاف التفكير الصحيح ، مثل السحر أو الابتهال وما إلى ذلك . مثل الفلاح البدائى الذى كان يجرى شعائر معينة من شأنها فى نظره أن تنزل المطر أو تدفع الآفات عن الزرع ؛ والفلاح المتعلم فى العصر الحاضر الذى يكافح الآفات الزراعية بالمبيدات الكيمائية فإنه يسلك الطريق العلمى.

وكان عيب الفلسفة القديمة أنها تجعل الأشياء الخارجية الواقعة من بناء التفكير . مع أن العكس هو الصحيح . أى أن الأشياء الخارجية حقائق واقعة وهى أصل تفكيرنا . فالمثالية تزعم وجود قوة عاقلة تريد أن تحقق ذاتها فى داخل التجارب الإنسانية . أما البرجماتية فإنها جهد للتخلص من بعض المآزق الواقعة التى تهددنا . وذلك عن طريق التفكير الذى هو « أداة للسيطرة على البيئة ، وهى سيطرة تتم عن طريق أفعال ما كان يمكن القيام بها لولا حل سابق لموقف معقد إلى عناصر مؤكدة وإمكانيات مستقبلة مصاحبة لذلك ، أو بعبارة أخرى لولا التفكير »[1] .

---

(١) Essays in Experimental Logic, p. 30.

« ووظيفة التفكير التأملى أن يعدل الموقف الذى يصطبغ بالغموض والشك والصراع والاضطراب إلى موقف واضح متماسك مستقر منسجم »[١] .

هذا التفكير الأداتى يتميز بصفتين أساسيتين :

(١) أنه يُعَرَّف التفكير بالوظيفة ، وبالعمل الذى يؤدّى ، والنتائج التى تترتب عليه .

(٢) أن التعديل أو التنظيم الجديد الذى يتم بهذا التفكير إنما هو شىء طبيعى ، لأن التفكير ينتهى فى الخبرة التى هى تعديل واقعى لموقف طبيعى سابق .

فأن يعانى المرء من مرض وأن يحاول التغلب على الألم خبرة أولية . ثم أن يحاول أن ينظر فى المرض وأن يسعى للكشف عن أسبابه ، وأن يخترع أدوية لعلاجه ، خبرةٌ صادرة عن تأمل . ثم أن يجرب الدواء المقترح لمعرفة أثره فى الشفاء هو العمل الذى يعدل المعطيات الأولى والعلاج المفروض ليصبح كل ذلك من موضوعات المعرفة .

والطبيب حين يعالج مريضاً يمر تفكيره فى عدة مراحل ، أولها : مواجهة مشكلة يريد حلها وهى المرض الذى يشكو منه المريض ، ثم تحديد المشكلة بسؤال المريض عن حقائق الموقف والأعراض التى يشكو منها فيقيس درجة الحرارة ، وضغط الدم ، ويفحص الصدر والأمعاء وغير ذلك ، وفى المرحلة الثالثة يضع « فرضاً » باعتبار أنه علة المرض ، ثم يحاول تطبيق هذا الفرض فإذا نجح كان فرضه صحيحاً ، وإلا حاول أن يضع فرضاً يطبقه حتى يصل إلى النتيجة الصحيحة [٢] .

---

(١) How We Think p. 99.

(٢) إسماعيل القبانى : التربية عن طريق النشاط ، مكتبة النهضة ١٩٥٨ ، ص ١٥٧ – ١٦٥ وانظر ديوى : الديمقراطية والتربية ص ١٥٠ – ١٥٨ ، وانظر مصدر المثال السابق فى كتاب : Essays in Experimental Logic p. 34.

وكلما كان الطبيب وهو يفحص المرض واسع المعرفة بالحقائق السابقة التى تعلمها يكون أقدر فكرياً على علاج هذه الحالة الخاصة . فالتصورات والمعانى العقلية « علامات » ووسائل لمعرفة الموقف ، وتعديله .

ولما كانت عنايتنا فى التفكير بالألفاظ وما تحمل من معنى ، فالمعانى لها منزلة عظيمة فى التفكير ، ولكنها على طريقة ديوى أدوات كثيرة كذلك لبلوغ غاية نريدها .

والمعنى قد يكون دلالة ، أو علامة ، أو قيمة على شىء ما ، ولعل قولنا « رمز » يشمل الدلالة والعلامة والقيمة للمعنى . وقد يكون المعنى دلالة ظاهرة ، وقد يكون دلالة باطنة ، فمثال الدلالة الظاهرة ارتفاع الزئبق فى البارومتر ، فقد يدل على وقوع مطر ، ومثال الدلالة الباطنة الصفات الشعورية التى توحيها الألفاظ ، فهذه الصفات لها وظيفة وقيمة فى توجيه السلوك وتحديد الموقف والسيطرة عليه .

بعبارة أخرى إن إدراكنا للأشياء ليس إدراكاً مجرداً لذاته ، بل وسيلة لغرض آخر ، لأنه دلالة على شىء أو رمز لمعنى . إن المدركات ليست أشياء ، بل « أدوات » للمعرفة ، ليست موضوعاً للمعرفة بمقدار ما هى وسائل نتوصل بها إلى المعرفة . « فنحن نعرف بنية الخلية من لون الصبغة ؛ وما يعتقده مفكر ما من عباراته على صفحات كتاب ، واحتمال المطر من ارتفاع البارومتر ، ودم الإنسان من التحليل الكيمائى والفحص المجهرى لبقعة حمراء على ملابسه »[١] .

فالأداتية تتخذ من الأشياء وسائل للمعرفة لا موضوعات لها . وهذه تفرقة قد تدفع المرء للتساؤل عن الحكمة فى هذا التمييز ، فهذه منضدة مثلا ، والأداتية تعترف أنها موجودة بالفعل هناك[٢] ، فسيان أن تكون وسيلة للمعرفة أو موضوعاً

(١) Essays in Experimental Logic, p. 43.

(٢) اعتراف البرجماتية بوجود المنضدة كشىء خارجى يقارب بينها وبين الواقعية ، واعترافها بالعقل مهيمناً على الأشياء ومعدلاتها يقارب بينها وبين المثالية . ولا شك أن البرجماتية قد اعتمدت على الواقعية والمثالية معاً ثم افترقت عنهما . وقد اتهم بعض النقاد ديوى بأنه مثالى كما اتهمه بعضهم الآخر بأنه واقعى .

لها . يجيب ديوى عن هذا التساؤل : إن موضوع المعرفة شيء أشرف وأكمل من أى معطيات أخرى ، وهو قائم بذاته ، مكتف بذاته . ونظرتنا إلى الأشياء كوسائل للمعرفة تتفق مع فلسفة تؤمن بالتغير لا بالثبات . وأنه فى إمكان الإنسان أن يعدل إلى البيئة التى يعيش فيها من جميع الوجوه الطبيعية والحيوية والنفسانية والأخلاقية والاجتماعية .

والأداتية كما تعترف بالمعطيات data أنها موجودة وجوداً موضوعيًّا ، تعترف كذلك بموضوعية « المعانى » التى نرجع إليها فى البحث ونستخدمها فى ثقة واطمئنان .

فالمعانى أدوات لا غنى عنها فى التأمل . وهناك رابطة تجمع جنباً إلى جنب بين المعطيات وبين المعانى ، لأن المعطيات أو الأشياء إما أنها تدل على معان ممكنة وإما أنها « توحى » بمعان تقترحها . ونحن كما نتأثر بالشيء نتأثر بما يوحيه هذا الشيء ، ولعل تأثير الإيحاء فى تحريكنا إلى السلوك يكون أقوى من الشيء نفسه . فوجود الدخان يوحى بوجود النار . ولكن ليس من الضرورى أن تكون النار موجودة بالفعل مع وجود الدخان ، ولا بد لنا للتيقن من وجودها أن نرجع إلى الشيء نفسه . وهذا يقتضى منا الاعتماد على المنهج التجريبى للفحص والتأكد . خذ مثلا ما يفعلونه على المسرح ، إنهم يضعون ألسنة من اللهب فتوحى بوجود نار ، مع أن ألسنة اللهب ليست إلا شرائط من الورق الأحمر يعبث بها الهواء ، ولكنها توحى بوجود النار . وهذه الإيحاءات جزء من الموقف كله الذى يبدأ من الأشياء ذاتها ، وما توحى به ، وما يترتب على ذلك من معان عقلية ، ثم ما تفضى به من سلوك كالهرب فى حالة الاعتقاد فى وجود نار حتى لا يتعرض المرء للخطر . وهناك جانب طبيعى فى الموقف هو النار والجرى والاحتراق ، وهناك جانب عقلى ناشئ من الدلالة على هذه الأمور الطبيعية ، وهذا الجانب العقلى نعبر عنه بالمعانى أو التحديدات المنطقية ، التى نُثبتها بالألفاظ . فالمعانى نابعة من المواقف المحسوسة وناشئة عنها .

جملة القول الإنسان يعيش فى بيئة معينة يواجه فيها مواقف جديدة تحتاج منه إلى شىء من التصرف والسلوك بشكل جديد يتغلب به على ما يعترضه من مشكلات ، فيستعمل فكره فى التعرف إلى الأشياء الموجودة فى البيئة ، ويستخدم المعانى التى توحيها تلك الأشياء وتدل عليها ، كما يستخدم عقله وذكاءه فى الوصول إلى ما يبتغى من حلول ، وما تفكيره ومعرفته ومعانيه وأحكامه وتقديراته واستدلالاته سوى أدوات يستخدمها فى التغلب على البيئة وإخضاعها لسيطرته وتعديلها بما يلائم مصلحته وغايته .

وفى كتاب المنطق الذى صدر سنة ١٩٣٨ عدل ديوى عن مذهبه فى الأداتية إلى القول بالعمليات العقلية . فالأداتية تدل على العلاقة بين الوسائل والنتائج باعتبار أن هذه العلاقة هى المقولة الأساسية لتفسير الصور المنطقية . أما العملياتية operationalism فإنها تدل على الشروط التى يكون فيها الموضوع « أولا » صالحاً لاستخدامه كوسيلة ، و « ثانيا » عاملا بالفعل كوسيلة فى الوصول إلى التعديل الخارجى الذى هو الغاية من البحث[1] .

أى أن طرائق البحث هى عمليات تؤدى أو فى طريقها إلى الأداء ، مثال ذلك العمليات التى نستخدمها فى مسح الأراضى . والعمليات فى الصناعة توضح المقصود من العملياتية ، فمثلا استخدام البلاستيك أو الحرير الصناعى يقتضى استخدام طرائق وأدوات جديدة تلائم المواد الجديدة .

---

(١) فى هامش كتاب Logic, p. 14.